القـدس

جـبرا ابراهيم جـبرا

مدينة القدس ليست مجرد مكان : انها زمان ايضا . فهي لا يمكن ان تُرى بوضوح ضمن نطاقها الجغرافي المحدود وحسب ، لانها حينئذ لن تُفهم . انها يجب ان ترى في منظورها التاريخي ، وترى كأن التاريخ – تاريخ اربعة آلاف من السنين– اجتمع في لحظة واحدة، هي اللحظة التي يراها المرء فيها . في هذه المدينة التاريخ حيّ ، ينطق به كل حجر . انه تاريخ مليء بالتناقض ، مليء بالفجيعة . ولكنه ايضا تاريخ مدينة عشقتها البشرية جمعاء . لانها لم تكن يوما مجرد مدينة مكانية من حجر وطين وتجارة و سياسة . لقد كانت دوما مدينة الحلم والتوق وتطلع النفس البشرية الى الله . لقد وقفت شامخة على جبل ، تنظر الى البحر من جهة والى البادية من جهة اخرى . وبين جدرانها جمعت بين معاني البحر ومعاني البادية: قوتين حضاريتين في تفاعل ابدي. وفي هذا التفاعل سر مأساتها وسر عظمتها معا.

لئن كانت القدس في الاصل ، حتى اواخر القرن الماضي ، هي المدينة المسوّرة، بابوابها السبعة ، فانها بدأت تفيض الى ما خارج الاسوار منذ اكثر من سبعين عاما، بحيث اخذت تتصل شيئا فشيئا بالضواحي المحيطة بها من جهاتها الاربع. وقد اخذ هذا التوسع بالتسارع بعد هدم قسم من السور عند باب الخليل عام ١٨٩٨ ، فكان ذلك تحقيقا للاتصال العضوي بين امتدادات المدينة وقسمها المسوّر .

كان اقدم امتداد للمدينة خارج السور يتمثل في محلة النبي داود جنوبي المدينة ، وهي تعود الى بضعة قرون خلت . غير ان امتداد المدينة الاكبر جعل يتكامل بين ١٩٢٠ و ١٩٤٨ الى الشمال والغرب والجنوب ، في آن واحد .

هنا نشأت اجزاء القدس الجديدة ، امتدادا من شارع يافا من جهة ، ومن جهة اخرى امتدادا من شارع مأمن الله ، ومقبرة مأمن الله ، وشارع القديس يوليان ، ولا سيما بعد انجاز بناء جمعية الشبان المسيحية في شارع القديس يوليان في الثلاثينات الاولى . وبذلك اقيمت الصلات المباشرة بين المناطق المتباعدة من القدس الجديدة، وبين البلدة القديمة نفسها.

ففي اواسط القرن الماضي كان الالمان قد انشأوا كولونية الالمان ، وتلتها كولونية اليونان ، على بعد بضعة كيلومترات من السور ، ثم نشأت احياء واديرة هنا وهناك ،

تابعة للكاثوليك و الروم والروس الارثوذكس وغيرهم. ونشأت عندها ايضا بعض الاحياء اليهودية باموال من احد اليهود الانكليز ، هو السير موسى مونتفيور. وقد كانت مناطق البقعة الفوقا والطالبية والقطمون منذ ذلك الوقت حتى اواخر العشرينات اماكن نزهة واصطياف لاهالي القدس، يملكها افراد من القدس وبيت لحم. غير ان هذه كلها في الثلاثينات كانت قد خططت وتم عمرانها ضمن رقعة فسيحة واحدة تحيط بالمدينة المسورة من معظم نواحيها ، وبذلك تم نشوء القدس المعاصرة بشقيها القديم والجديد . وعلى هذا النحو ، في بحر سنوات قلائل، تحولت المناطق الصخرية المتباعدة البيوت، المزدحمة باشجار الزيتون، الى احياء جميلة ، حجرية المباني ، كثيرة البساتين ، عصرية التخطيط .

هنا ، اول ما يجب ان يقوله المرء عن القدس هو انها مدينة عربية، عريقة في عروبتها، رغم ان الصهاينة احتلوا نصفها الجديد . فنصفها الجديد المحتل عربي عروبة نصفها القديم، وعروبة بقية فلسطين المحتلة . وعندما يتحدث احد ابناء القدس عن مدينته ، يستحيل عليه ان يقصر الكلام على المدينة المسورة وما نشأ حولها من بناء وتوسع في فترة ما بعد النكبة. فالقدس بأرجائها كلها وحدة عضوية من اللامنطق ان تُشطر هذا الشطر المجرم. وما شطرها على النحو الحالي الا صورة مصغرة للخرق العقلي الذي اجتزأ اجزافا قسما من فلسطين لليهود . وبالرغم من مرور الاعوام على هذا الظلم المجسد، فان المقدسي لن يستطيع ان يتصور مدينته دون النصف المحتل ، باحيائه العربية ، ومنازله العربية ، ولونه العربي.

ولهذا فانني لا ارى بدا من البدء بالحديث من وجهة نظر شخصية صرف .

لقد سكنت في منخفض خارج السور تحت مشارف النبي داود ، كان يعرف باسم « جورة العناب ». وهو من هذه الاحياء الاولى التي اخذت تنشأ خارج القدس في اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن . وقد رأيت فيه تحولا من سوق للحيوانات ، تقام كل يوم جمعة ، الى منطقة صناعية ، نشأت فيها دكاكين الحدادين والنجارين والسباكين ، وعملت ايام الصغر في احدى دكاكينها صيفين متواليين ابان العطلة المدرسية ، لقاء قرشين ونصف قرش في اليوم — في اوائل الثلاثينات .

كان بيتنا غرفة واحدة من بنيان كبير طابقه الارضي منخفض عن الطريق العام ، ويتألف من حوش مربع مكشوف ينزل اليه بدرج ، على جوانبه غرف ، في كل منها عائلة كاملة . ومن باب غرفتنا كنت ارى مئذنة النبي داود تطل علينا من شاهق . ولما لم يكن لهذه الغرفة الا نافذة صغيرة قرب الباب كنا نراكم فيها كتبنا واغراضنا المدرسية، فقد اذن لنا صاحب الدار ان نفتح ثغرة مربعة صغيرة في اعلى الجدار المقابل للباب تساعد في التهوية، فجاءت النافذة بمحاذاة الارض من الطريق العام تماما، ولم يكن مزفتا يومئذ،

فجعلنا عليها مشبكا معدنيا ، وستارة صغيرة . وكان من عادتي ان استيقظ قبيل الفجر على اصوات الفلاحات القادمات من القرى المجاورة حاملات سلال الخضار الى السوق، وقد جلسن قرب نافذتنا العليا هذه يسترحن من السير الشاق قبل بلوغهن « سوق الخضرة » في باب الخليل ، فيصدر عنهن ، وعن دوابهن ، لغط كثير .

ومن هناك ايام التلمذة كنت اصعد كل يوم « الجورة » الى باب الخليل ، وهو يموج بالسيارات والباصات « بصحارات » الفواكه والخضار ، بالباعة والمشترين والحمالين . ثم اذهب الى المدرسة الرشيدية – التي ما تزال قائمة في مكانها خارج باب الساهرة – اما عن طريق باب الخليل والبلدة القديمة ، او عن طريق شارع يافا ، اذ اصعد الى « البوسطة القديمة » مارا بمكتبة «بولس سعيد»، ثم انزل «عقبة المنزل» مارا بالباب الجديدوالمستشفى الفرنسي ودير نوتردام الملاصق له، فالمسرارة، الى باب العمود . اما اليوم فهذه كلهاجزء من منطقة الحرام الملأى بالانقاض والاسلاك الشائكة. ومن باب العمود، حين ينظر المرء غربا، يرى الدير الكبير عبر الاسلاك وقد تحول الى خرائب رهيبة في معركة عنيفة وقعت بين العرب واليهود عام ١٩٤٨ ، حين اراد اليهود ان يجعلوا منه منطلقا لاقتحام الباب الجديد والمدينة القديمة . فجابههم المناضلون ، والجيش العربي ، مجابهة ضارية ردتهم على اعقابهم .

لقد تحولنا فيما بعد الى حيّ آخر يقع بين شارع مأمن الله و الشماعة ، وكانت القدس ، منذ قبل اضراب عام ١٩٣٦ الشهير ، في اتساع سريع ، واستؤنف هذا الاتساع بعد الاضراب . وفي هذه الاثناء كان قد تم بناء الكلية العربية على جبل المكبّر ، جنوبي القدس . وكان عميدها الاستاذ احمد سامح الخالدي ، رحمه الله . وغدت المسيرة اليومية بالنسبة اليّ ، تتجه جنوبا ، بعد ان يركب المرء باص البقعة الفوقا، ثم يسير وراء معسكر للجيش البريطاني الى ان يصل قمة جبل المكبّر حيث قامت الكلية في وسط فراغات فسيحة، بعضها ملاعب ، تحفّها المئات من فسائل الصنوبر . وقد نمت الفسائل الى شجيرات تحت سمعنا وبصرنا ، ما بين ١٩٣٥ و ١٩٣٨ .

قضيت سنتي الاخيرة داخليا في الكلية العربية ، ولن انسى منظر القدس عبر وادي الربابة ، وهي في النهار مغمورة في غمام من البنفسج ، وهي في الليل تتقد وتتلألأ .

كانت الكلية العربية يومئذ ، كعهدها دائما الى ان اتت عليها النكبة ، تجمع حوالي مائة وعشرين طالبا يتم انتقاؤهم من بين المبرزين في مدارس فلسطين كلها ، وكان معظمهم يمتازون ، فضلا عن الذكاء ، بالقدرة الهائلة على الدرس الشاق ، حتى كان من مهام المسؤولين كبح رغبة الطلاب في الدرس طوال الليل « سرا » ، بعد ساعة الايواء الى الفراش ! فلا عجب ان تخرّج من الكلية عدد كبير من الشباب اضحى الكثير منهم اليوم من مشاهير العرب. كنا في الليل، من مكاننا التنسكي هذا، نطيل النظر الى القدس، من ذلك الجبل

نفسه الذي وقف عليه يوما ، قبلنا بالف وثلاثمائة سنة ، عمر بن الخطاب ليرى بيت المقدس لاول مرة . « ثريات متلاحقة ، استمرار لنجوم السماء » ، هكذا كنا نصف المدينة المشعشعة في الظلام عبر الوادي الذي كان يدعى في الازمنة الغابرة بوادي جهنم ، ونحن نتحدث دون انقطاع في كل ما يهم الشباب، ولا سيما الادب والسياسة، فضلا عن دروسنا العاتية التي كان بعضنا يحفظها غيبا وذلك بان يمشي ويمشي حول الملاعب الفسيحة وهو « يصمّ » الى ما لا نهاية .

بعد ذلك ببضع سنوات تحولنا مرة اخرى ، وكان تحولنا هذه المرة غربا الى ضاحية القطمون ، على ذروة تل يشرف على منحدرات الصخر من ناحية — تبلع واديا يؤدي فيه الطريق الى قرية المالحة — ومنحدرات من ناحية اخرى مليئة بالمنازل الحجرية الجميلة التي امتازت بها القدس . لقد بلغت المدينة في اوائل عام ١٩٤٧ اقصى توسعها ورونقها : غير ان الارهابيين اليهود كانوا قبل ذلك بثلاث سنوات قد شرعوا في تدمير القدس الجديدة وفق خطة وحشية . فبدأوا اولا بنسف المقرات الحكومية ، الواحد تلو الآخر . (وكان من اشهر الاماكن التي نسفوها على من فيها جناح السكرتارية العامة للحكومة في فندق الملك داود) . وبعد اعلان التقسيم في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٤٧ ، اخذوا ينسفون منازل العرب ليلا ، ولا سيما في حي القطمون الذي كان مجاوراً لحي رحافيا اليهودي ، ارهابا للسكان ودفعا اياهم على الهرب . ثم جعل العرب يردّون على التحدي، وما هي الا بضعة اشهر، حتى كانت القدس الجديدة متاهة مخيفة من اسلاك شائكة، وبيوت مهجورة، وخرائب متناثرة ، تتخاطب بدمدمة الرصاص ليل نهار .

انني اذكر القدس الجديدة ، القدس السليبة ، كآدم يذكر الجنة . فالصبي اذ ينمو ، تنمو المدينة في كل زاوية من زوايا نفسه ، وصباه انما هو انعكاس لمئات الطرقات والبيوت والحوانيت والازقة والاشجار والبقاع المزروعة التي تخضرّ في الربيع وتصفرّ في الشتاء ، و الصخور المنتشرة في كل مكان ، التي تؤلف المدينة . اين تنتهي الذات ويبدأ الموضوع هنا ؟ شارع بكى فيه الولد ، وجاع ، وضحك ، وعشق فتاة لا يعرف اسمها لانها ابتسمت له من غير قصد ، وركض فيه في المطر، في الظلام، مع اخوته، مع والديه، مع العشرات من اصدقائه الذين ما زال يسمع في ذهنه اصواتهم المتجاوبة بين مباني الشارع: مثل هذا الشارع هل يمكن ان يبقى امتدادا هندسيا موضوعيا مجردا ؟ واذا ما جاء العدو وحطم الارصفة بصفحاته ، ونسف البيوت على من فيها ، واجتث الاهل والصحب من جذورهم ، والقى بالفتى وقد اصبح شابا ، عبر الوديان ، عبر الصحاري، الى طرق اخرى ومنازل اخرى ، هل له الا ان يرى في ذلك محاولة جائرة لفصم الذات ، والذات يجب الا تنفصم ؟ ومن هنا كان شعور كل فلسطيني ان لا بد له من العودة : فالعودة هي اكثر

من استرداد ارض سلبها العدو : انها استرداد القسم الاخر من الذات . انها استرداد للنفس بكاملها .

من مبتذلات التاريخ هذه المدن الكثيرة التي بنيت واتسعت وشمخت ، ثم قوّضتها الزلازل او دمرتها جيوش الغزاة ، فتحولت الى انقاض اندثرت تحت رياح الزمن ، او طمرتها الاتربة المتراكمة عبر القرون . عمود هنا وقنطرة هناك ، وحجارة تكشف عنها ايدي المنقبين وسط فلاة بائدة .

غير ان معجزة التاريخ هي هذه المدينة التي قدّسها البشر ، وبقدر ما قدسوها اعملوا فيها يد التخريب والدمار ، ولكنها تجرح ولا تموت ، تتحطم ثم تنتعش من جديد .

اول من بناها اقوام ساميّة جاءت من الجزيرة العربية ، يطلق عليها اسم الكنعانيين بصورة مجملة ، وان كنا نعلم ان المتأخرين منهم كانوا ايضا يعرفون باليبوسيين . لقد بنى هؤلاء العرب القدس حوالي عام ٢٥٠٠ ق. م، واطلقوا عليها اسم اورشليم (مدينةالسلام). واغلب الظن انهم اختاروا موقعها لحصانته النسبية في وسط منطقة غنية بالقمح والزيتون والكروم ، ولوجود عين سلوان التي ربما كانت داخلة ضمن تخطيطها الاول. وقد اكتشفت مؤخرا بقايا من السور والقلعة اليبوسية الاصلية .

وقد قاومت القدس هجمات العبرانيين زمنا طويلا، بعد ان جاؤوا ارض فلسطين غزاة يريدون الاستقرار. ولم يدخلوها الا عنوة،بعد تأسيسها بحوالي خمسةعشر قرنا من الزمن. وما من ريب في ان الملك داود ، عندما جعلها عاصمة له حوالي عام ١٠٠٠ ق.م،اختارها لانها كانت مدينة كنعانية متكاملة هي مركز عبادة هام ، فاستغل فوائدها كلها : من حصانة ، ومركزية ، ومكانة في اعين السكان الذين كانوا ما يزالون يعبدون الاله القديم تموز ، يبكون موته بالمراثي وفي الربيع يحتفلون بعودته الى الحياة ، وعودة الخصب الى الارض معه .

والعبرانيون انما فرضوا وجودهم على سكانها الاصليين فرضا وعنوة . وحتى كتب التوراة، رغم ما اعمل فيها كتّاب اليهود القدامى من تحريف، تشهد على ذلك. وقد عُرف العبرانيون بقسوتهم على من يغلبونهم في فتوحاتهم، مدّعين بان يهوه يأمرهم بقتل كل امرأة وشيخ وطفل، عدا البالغين، بل وقتل الخيول والمواشي وما تحفل به الارض من حيوانات. ولعل تاريخ مدينة سبسطية قرب نابلس ، اذا استطاع المرء ان يقرأ بين سطوره ، يدل على ان « الاغراب » (اي السكان الأصليين) الذين كانوا يتمسكون بآلهتهم فيُغضبون اليهود عليهم ، فيستغل الصراع بينهم السوريون ، ثم اليونان ، فالرومان ، بقوا في ارضهم فلسطين

قرنا تلو قرن شوكة في جنب الغزاة العبرانيين الذين اقاموا حكمهم الغاصب فيها .

واول تدمير كبير لها جاء على ايدي العراقيين القدماء . لقد كانت فلسطين لحقب متعاقبة من حكم اليهود لها ، نهبا للجيوش الفرعونية من ناحية ، والجيوش الاشورية من ناحية اخرى . غير ان نبوخذ نصر ، ملك بابل ، لم يكتف بالفتح عام ٥٨٦ ق . م بل دمر قسما كبيرا من « اورشليم » ولا سيما هيكل سليمان ، ومحا تحصيناتها، وسبى كبار اليهود الى ارض العراق ، واحلّهم على نهر الفرات . ولقد كان من مآسي التاريخ ، ان بابل نفسها ، لشدة ما كان من صراع بينها وبين الشمال من ناحية ، والشرق من ناحية اخرى، وقعت اخيرا بكل ما فيها من حضارة ومجد في ايدي الفرس، وكان من الطبيعي ان يساعد الفرس اعداء بابل على الثأر منها ، فاعادوا اليهود الى القدس بعد سبيهم منها بنصف قرن ليبنوا هيكل سليمان من جديد ، ويعيدوا بناء الاسوار .

غير ان سلطة اليهود على القدس ، رغم ذلك، لم تبق مطلقة لمدة طويلة . فقد وقعت تحت ظل خلفاء الاسكندر منذ اواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، واصبحت المدينة جزءا من الحضارة الآرامية الهلينية ، حيث يتكلم الناس بالآرامية ، ويكتب المفكرون بالاغريقية ، وليس للعبرية الا قيمة دينية شعائرية حتى بين اهلها . والحضارة الآرامية (او « السريانية » : راجع «دراسة في التاريخ» لآرنولد طوينبي) هي الحضارة القديمة التي انبثقت عنها الحضارة العربية اللاحقة ، فهي اذاً ، في فلسطين ، امتداد للوضع الكنعاني العربي في المناخ والتفكير .

وقد كانت روما خليفة الهلينيين في حكم القدس ، ولا سيما بعد ان حاصرها بومبي عام ٦٥ ق . م ونهب هيكلها كراسوس عام ٥٤ ق . م . وقد اقامت روما ملوكا في المنطقة من اسرة يهودية هلينية الثقافة رومانية النزعة ، وكان اكثرهم يدعى بهيرودس . ولئن ابقت روما على شيء من الكيان اليهودي لزمن ما ، فانهـــا ضاقت بهم ذرعا ، وانتهى الامر الى ان جاء القائد الروماني طيطوس الى القدس ، وبعد حصار الثوار فيهـا مدة طويلة ، اقتحمها عام ٧٠ للميلاد، ودمرها تدميرا يضاهي ما كان البابليون قد اوقعوه بها قبل ذلك بحوالي ستة قرون . واقيمت فيها حامية رومانية حتى عام ١٣٢ ، عندما ثار اليهود مرة اخرى ، فسحقت قوات الامبراطور هدريان الثوار هذه المرة ودمرت المدينة تدميرا كاملا ، وحرثت ارضها حرثا ، وطرد اليهود منها طردا قاضيا ، وكانت النتيجة ان « تشتت » اليهود منذ ذلك اليوم ، وزالت عن القدس الصبغة اليهودية الظاهرة ، وتحطم هيكل سليمان للمرة الاخيرة — هذا الشعار العاطفي العرقي الذي ابقاه اليهود نصب اعينهم قرونا متوالية . وعلى انقاض المدينة القديمة ابتنى الرومان مدينة جديدة سموها بايليا كابيتولينا (باسم ايليوس هدريانوس) . ومكان الهيكل اقاموا—كما كان متوقعا—

هيكلا لجوبيتر .

ولكن اللون الحضاري الذي بقيت المدينة تتصف به ، بقي هو الآرامي (العربي) الاغريقي – واصبحت فلسطين جزءا من الحضارة المتوسطية عن حق . وفي هذه الفترة تظهر اولى الدويلات العربية الى الشمال من القدس : في تدمر . وبنشوء النصرانية – وهي آرامية اغريقية في منبتها – وابتناء الكنائس الكبيرة– ككنيستي المهد والقيامة– من قبل الدولة البيزنطية من القرن الرابع فصاعدا ، عادت القدس الى وضعها الطبيعي الصحيح ، من حيث السكان انفسهم ، رغم بقاء السلطة البيزنطية في البلاد .

والغريب ان الفرس الذين اعادوا اليهود من بابل ، كادوا يفعلون ذلك مرة اخرى عندما هاجموا فلسطين ، ودمروا القدس عام ٦١٤ م ، بقيادة كسرى الثاني. لقد عبّروا عن نقمتهم التاريخية على الاغريق هذه المرة بمحاولتهم تحطيم النصرانية في عقر دارها . فجاؤوا الى القدس بآلاف من اليهود الناقمين على المسيحيين ، لان المسيحيين لم يسمحوا قط لليهود بالعودة ، واعمل اليهود مع اسيادهم الفرس السيف في ذبح الاهالي ، وتهديم المباني والكنائس . فنُهبت القدس ، وقُتل الوف من سكانها . ومن يذهب الى دير مار سابا اليوم ، وهو يقع في التلال الجرداء جنوبي شرقي القدس ، يجد اكوام الجماجم التي يقول الرهبان انها جماجم القتلى في تلك الحملة البربرية . (كنيسة المهد في بيت لحم لم تصب بأذى يومئذ ، لان الفرس رأوا صورة « المجوس الثلاثة » مع المسيح الطفل على بابها ، فامسكوا اليد عنها) .

ثم ذهب الفرس، كما جاؤوا ، وذهب معهم اليهود، وعادت السلطة البيزنطية الى المدينة على يد هرقل، حتى مقدم الجيوش العربية عام ٦٣٧، وحصارها على يدي عمرو بن العاص اولا ، ثم ابي عبيدة بن الجراح ، زهاء اشهر اربعة . واخيرا دخلها عمر بن الخطاب ذلك الدخول المشهور العجيب – وهو يرتدي « المرقّعة » لئلا يقال انه شمخ او تجبر .

ومن المدهش ان اليهود لعبوا لعبتهم التاريخية المألوفة هذه المرة ايضا . فقد حسبوا ان العرب جاؤوا فاتحين على غرار الفرس ، فارادوا دخول المدينة متسترين بالجيش الجديد . غير انهم لم يفلحوا في ذلك . فقد جاء في « كتاب الامان » (ميثاق الصلح الذي عقد بين عمر بن الخطاب وبطريرك القدس صفرونيوس) : « ... هذا ما اعطى عبد الله عمر امير المؤمنين اهل ايليا من الامان . اعطاهم امانا لانفسهم واموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ... انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صلبهم ولا شيء من اموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار احد منهم ، ولا يسكن بايليا معهم احد من اليهود...». ويذكر الطبري ان احد اليهود كان قد حث الخليفة عمر قبل ذلك في معسكر قرب دمشق قائلا : « يا امير المؤمنين ، لا ترجع الى بلادك حتى يفتح الله عليك ايليا » .

ولكـن نوايا اليهود ، فيما يبدو ، لم تخفَ على اهـل المدينة فـاتفقوا مـع الخليفة العادل على احباطها .

وهكذا استمرت القدس في عروبتها . وبقية القصة معروفة : اخفـاق الصليبيين بعد مائتي سنة من القتال المتواصل في نزعها من ايدي العرب (دخلها الصليبيون بقيادة غودفري دي بويون عام ١٠٩٩ ، وانتزعها من ايديهم صلاح الدين الايوبي عام ١١٨٧) ، ثم استيلاء العثمانيين عليها على يد سليمان القانوني عام ١٥١٧ ، ثم استيلاء الانكليز على فلسطين ودخولهم القدس بعد ذلك باربعمائة عام بالضبط — ودخول اليهود من جديد متسترين بحماية ومساعدة الفاتح الجديد .

لقد دخل الجنرال اللنبي القدس ، مترجلا عن حصانه ، في ١١ كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩١٧ ، من باب الخليل . مـا الذي كان يعلمه عن المؤامرة اليهودية على القدس — وبقية فلسطين — عندما اعلن ، عن غير فهم صحيح للتاريخ ، ان تلـك كانت « آخر الحملات الصليبية » ؟ اولا ، كيف سمح لنفسه بان يتصور نفسه فاتحا « صليبيـا » ، مع ان العرب كانوا شركاء له في « الفتح» ، وانهم ما ثاروا على الاتراك ، الا لينتزعوا بلادهم من النير العثماني الطوراني ، وصراع العرب مع اوربا حينئذ امر غير وارد ؟ وكيف اوهم نفسه ، ثانيا ، انه يدخل القدس دخول الصليبيين ، وهو عن علم او غير علم انما يمهد الدرب لحفنة من الصهيونيين كانوا منذ اواخر القرن التـاسع عشر دائبين يشترون الذمم ويساومون العثمانيين والانكليز وغيرهم من اجل الاستيلاء على هذه الارض العربية ؟

ثلاثون عاما من التناقض السياسي الرهيب مرت بعد ذلك على القدس . ثلاثون عاما من صراع فلسطين مع قوة غاشمة مركبة لا تفهمهم — او لا تريد ان تفهمهم — ولا يفهمونها . اول ما اذكر من حياتي : المظاهرات والاضطرابات والاضرابات والجند والشرطة يملأون الشوارع . لقد نشأ جيلي في خضم من التمرد والعصيان والمـأساة : في خضم من القتـال والتطلع الى الحرية : في خضم من الجنود يطلقون الرصاص على آلاف المتظاهرين من رجال ونساء وصبية : في خضم من القنابل وبراميل الديناميت يفجرها ارهابيو اليهود في ابواب المدينة فتتناثر اشلاء الابرياء ذات اليمين وذات الشمال . ثلاثون عاما من منع التجول ، وملاحقة الشباب ، وفرض العقوبات الجماعية على القرى بعد ان يقوم الجند ، في تفتيشهم عن الثوار ، بخلط القمح بالعدس بالتراب بالطحين في كل بيت في كل قرية . ثلاثون عاما من القصائد المتمردة والخطب اللاهبة والاغتيالات التي ترافق كل ثورة .

ورغم هذا كله ، فقد كانت ثمة معجزة . كانت المدينة في نمو دائم . فرغم كل ما حدث كانت هناك مدارس — على قلتها — لعل العالم العربي لم يعرف مثلهـا مستوى في التعليم وكان هناك نظام ييسر للقدس ان تتسع وتزداد عمرانا ونضرة وجمالا .

ما الذي كان سيتحقق من معجزة اعظم لو عرفت القدس – كما عرفت مدن غيرها – امنا وسلاما طيلة تلك الاعوام الثلاثين ؟

قد يذهب المرء الى القدس بالسيارة او الطائرة . واليوم ليس للمرء القادم بالسيارة الا ان يأتيها من الشرق، عن طريق عمان. كانت الطريق فيما مضى بين عمان والقدس تستغرق اكثر من ساعتين : تتلوى صعدا ، وتتلوى نزلا في وادي شعيب ، وتقطع جسر اللنبي (سابقا) القائم على نهر الاردن – والذي كان فيما مضى نقطة الحدود بين فلسطين وشرقي الاردن – مارة باخفض منطقة في الدنيا عن سطح البحر ، منطقة الغور ، ثم تمر باريحا ، وبعد ذلك تتلوى صعدا من جديد ، ويستمر الصعود والانعطاف حتى تبلغ بيت المقدس، على ارتفاع ٨٠٠ متر عن سطح الارض ، اي بارتفاع عاليه في لبنان .

اما اليوم فقد انشئت بين عمان والقدس طريق مستقيمة عريضة ، تقطعها السيارة في حوالي الساعة الواحدة . وقبيل وصول المرء الى القدس ، يجد ان الطريق حادة الصعود رغم اتساعها ، وتنعطف انعطافات عديدة تبلغ به فجأة قرية العازرية ، حيث اقام المسيح لعازر من الموت ، وبعد قليل يجد نفسه عند « رأس العمود » ، واذ المدينة القديمة فجأة تكشف عن نفسها وراء الاسوار القائمة على اعالي تل متصاعد، وقد انتشرت المباني والقباب والمآذن حول فسحات الحرم الشريف الذي تتصل اراضيه ومبانيه بالسور الشرقي ،وقد توسطتها جميعا قبة الصخرة وهي تشعشع بالوانها الذهبية . ومن ثم سيجد الزائر نفسه في بقعة هي اكثف بقاع الارض مواقع مقدسة : فهو سيمر بالجسمانية حيث القي القبض على المسيح بخيانة من يهوذا ، وكنيسة «ستنا مريم» وهي من اغرب كنائس الدنيا. فالكنيسة هنا مبنية كلها تحت الارض في كهف عظيم ينحدر حوالي خمسين درجة الى اعماق الارض ، دونما منفذ فيها عدا المدخل ، لينتهي الى سرير يقال انه سرير العذراء ، يرى المؤمنين يمرون تبركا من تحته . وفيه بئر قديمة ينزلون الدلاء فيها بايديهم ويصعدونها ليشربوا من مائها المقدس . وليس على ظهر الكنيسة الا الارض الصخرية ، وقد امتلأت باشجار الزيتون ، بينها بعض القبور التابعة للروم الارثوذكس. واذا اتفق وصوله يوم ١٥ آب (اوغسطس)، يوم عيد العذراء مريم ، وجد الناس هناك في احتفال : اراجيح الهواء تدور بالاطفال ، والمعيدون يأكلون ويشربون ويغنون تحت اغصان الزيتون . ويشرف على هذا المشهد جبل مشهور، هو جبل الزيتون ، في اعلاه – عندما يتاح للمرء الرقيّ اليه – قرية الطور وكنيسة الصعود ، حيث صعد المسيح الى السماء ، يرى فيها حجرا املسته شفاه المتعبدين وايديهم طوال القرون ، لان فيه طبعة تشبه طبعة القدم – يقولون انها اثر قدم المسيح وقد

انطبعت في الصخر لحظة صعوده الى لدن الله . ولكن ذلك سيراه الزائر فيما بعد ، كما سيرى هناك فندقا ضخما من احدث الفنادق طرزا وقد جثم على ذلك المرتفع الشاهق ليشرف لا على المدينة وحدها ، بل على كل ما يحيط بها من وديان وجبال وسهول اخاذة الفتنة تتباعد شرقا نحو الآفاق السحيقة ، نحو «الجبال الزرق» القائمة وراء البحر الميت ، وجنوبا نحو بيت لحم و الخليل .

ولكن سيارة الزائر ستصعد به ، من عند كنيسة العذراء ، ليمر بكنيسة اخرى ثم بباب « ستنا مريم » ، ثم ينعطف نحو باب الساهرة ، منطلق المدينة الجديدة منذ وقوع النكبة . وهناك يشق الطريق بين الازدحام نحو اكبر مدخل للمدينة المسوّرة : باب العامود .

وعندها يشعر العربي فجأة ، ومرة اخرى ، بوقوع النكبة : اذ انه هنا يرى حائطا ضخما يمتد نحو الشمال ، بني في السنوات الاخيرة عابراً المسرارة الى حي الشيخ جرّاح ، ليقي العرب شر القناصة اليهود الذين يحتلون المرتفع المواجه ، عبر المنطقة الحرام . وهكذا تجد المأساة لها رمزا آخر تقيمه بين يديه .

اما بلوغ القدس بالطائرة فميسر جدا من معظم العواصم العربية القريبة ، ولا سيما من بيروت . فمن بيروت ثمة طائرتان على الاقل كل يوم تقصدان القدس . والطائرة بسفرتها القصيرة من بيروت تضطر بالطبع الى الاتجاه شرقا الى دمشق ، ثم جنوبا فغربا : والمشهد من الجو الاردني في معظمه مشهد ارض جبلية حمراء الصخر يلمح فيها الراكب فجأة نهر الاردن خطا رفيعا كثير التعاريج ، واذا هو بعد لحظات يهبط في مطار قلندية ، على بعد حوالي عشرة كيلو مترات شمالي المدينة . ومن هناك تذهب به السيارة في طريق عريضة عصرية البناء ، بين شريطين متواصلين من المباني الحجرية الحديثة ، البادية الحسن والاناقة ، وهي التي جعلت من قريتي بيت حنينا وشعفاط ضاحيتين جديدتين من ضواحي المدينة ، الى ان يبلغ اشهر مشارف القدس في تاريخها الطويل : جبل سكوبس . واذا بالمدينة ، بلمحة واحدة ، تنبسط امامه بشقيها الجديد والقديم ، المحتل والحر — تنبسط وتلتمع كأنها صنعت من صدف ملون . من هنا كان الحجاج المسيحيون يجعلون طريقهم فيما مضى ، حتى مجيء العثمانيين (جعل العثمانيون باب الخليل المدخل الوحيد الميسر لقوافل الحجاج ، وكان عليهم ان يبلغوه في النهار ، لانه كان يقفل ساعة الغروب) ؛ واذا ما وقعت اعينهم على المدينة ، وقد غمرها ذوب من الورد والبنفسج ، بانت لهم انها المدينة المثلى التي جعلوا منها يوطوبيا احلامهم وتشوفاتهم ، وخرّوا على ركبهم ساجدين ، وقبلوا التراب المقدس ، هاتفين ضارعين .

مشهد المدينة من هنا مشهد يهز النفس بسحره ، قد لا يفوقه روعة الا مشهدها من جبل الطور ، قرب كنيسة الصعود . ولا بد من القول ان مستشفى هداسا والجامعة العبرية

على مقربة من هذا المكان: وهما، رغم كونهما في قلب المنطقة العربية، ما زالا اشبه بجزيرة ترعاها الامم المتحدة لصالح اليهود .

من هنا ينزل المرء الى منطقة الشيخ جراح، وبعد قليل يجد نفسه وسط جلبة وضوضاء وسيارات ذلك المدخل الكبير الفخم : باب العمود . وسوف يدرك في الحال، ولا ريب، انه على عتبة مدينة هي من اروع واغزر النماذج القائمة لمدينة عربية بقيت على طابعها الهندسي القديم منذ القرن الثاني عشر للميلاد، منذ الحروب الصليبية وانتصار صلاح الدين الايوبي . ولئن كانت اسوارها ، على الاغلب ، عثمانية البناء تعود الى اوائل القرن السادس عشر ، فانها تحفظ بين حجارتها دلائل عهودها الممعنة في القدم الى ما قبل اربعة آلاف سنة .

اما باب العمود ، فقد انجز بناءه سليمان القانوني عام ١٥٣٧ وجعله على نمط معماري بلغت به الهندسة العثمانية اوجها ، اذ اراد السلطان الكبير ان يترك في القدس اثرا بارزا ينطق بفخره « بتحرير » المدينة من المماليك، وبعزمه على تنظيم المدينة وتجميلها وتجديدها. غير ان المدينة ، بعد موته عام ١٥٦٦ ، لم يشيد فيها بنيان واحد ذو قيمة تذكر لثلاثة قرون طويلة . ولم يجدّ العثمانيون في توسيع طرقاتها واعادة تنظيمها الا عندما اراد غليوم الاول ، قيصر المانيا وحليفهم يومئذ ، زيارتها عام ١٨٩٨ ، فقاموا باعمال من الهدم والردم والترميم ، ما كاد يجعل حتى العربات تستطيع اقتحام طرقاتها . وكان من نتائج تلك الزيارة العجيبة — التي كانت السبب في هدم قسم من السور عند باب الخليل ، كما ذكرنا في مستهل المقال — ان اقيم بناء ضخم على جبل الطور عرف باسم زوجة غليوم ، اوغستا فكتوريا، اضحى معلما بارزا من معالم المدينة شمالي شرقي السور. وقد قدر لهذا المبنى الشبيه بالبرج ان يصبح بعد ذلك بعشرين سنة ، على اثر هزيمة الاتراك ووقوع القيصر الالماني اسيرا في ايدي الحلفاء ، اول دار لحكومة الانتداب البريطاني . اما اليوم فهو مستشفى وكالة غوث اللاجئين ، ويعرف بمستشفى المطلع .

ومن مفارقات الزمن ان اسوار القدس ، التي صنعت لزمان غير زماننا ، والتي تبدو اليوم كأنها ليست اكثر من أثر تاريخي قائم، لعبت دورا كبيرا في الحفاظ على عروبة المدينة عام ١٩٤٨ . لقد عادت يومئذ واضحت قلعة كأداء ، صمدت لهجمات اليهود المتكررة ، مدة طويلة ، ومن وراء حصونها، رد المجاهدون والجيش العربي كيد اليهود الطامعين فيها الى نحورهم ، رغم ما الحقه اليهود بها من اضرار بقذائفهم المدفعية . وبقيت المدينة المقدسة في ايدي اهليها ، واخرج اليهود منها نهائيا لآخر مرة .

وحينما يدخل المرء المدينة من باب العمود ، يدهش لازدحام طرقاتها ونظافتها معا : فهي رغم ما يعج بها من جماهير ، مدينة نضرة ، منظمة ، لم يفقد سكانها رغم النكبة شيئا من حيويتهم ونشاطهم وحسن وفادتهم . فهذه المدينة التي هي دوما موئل آلاف

السواح والحجاج ، لم يتنازل اهلوها يوما الى اساليب المدن السياحية التي لا تتورع عن استغلال الغريب . لقد اعتادت القدس على جماهير الوافدين الناطقين بكل لغة من لغات الارض ، فهي تنظر اليهم نظرة الكريم ، وتهيء لهم ما يحتاجون اليه من ضيافة ، معتزة بنفسها ، من غير تزلف لمأرب ومن غير رغبة في مغنم .

القدس ، كأكثر العواصم العربية منذ القرن السابع الميلادي ، لا سيما بغداد ودمشق ، مدينة تتخالط فيها الثقافات العريقة تخالطا عجيبا فتغني بتياراتها السيل الحضاري العربي الكبير . هذه معجزة اخرى من معجزات التاريخ في هذا الجزء من العالم : تعايش المذاهب والالسنة والعادات في ظل الشخصية العربية . وكون القدس مركزا للديانات السماوية جعل هذا التعايش مزيتها الكبرى طيلة الاربعة عشر قرنا الاخيرة . فالحرم الشريف ، اولى القبلتين وثاني الحرمين ، يشغل من مساحة المدينة القديمة سدسها ، وهو اول ما يلفت النظر عندما يطل عليها المرء قادما من الشرق . ان العين في الحال لتستقر على هذه القبة الذهبية الوضاءة ، التي تزهو عالية في وسط فسحات الحرم : قبة الصخرة . وهذه الصخرة التي اقيمت القبة عليها ، انما هي نواة القدس وقلبها منذ اقدم ازمانها : عليها ، او حولها ، او بسبب منها ، تعاقبت ممالك وحضارات ومبانٍ فيها يتجسد تاريخ المدينة ، كما يتجسد فيها سحرها . الكنعانيون بنو هنا اقدم هيا كلهم ، وتلاهم اليهود ، والرومان ، والبيزنطيون ، والعرب ، وحتى الصليبيون لفترة ما اقاموا هيكلا لهم داخل القبة .

مسجد قبة الصخرة في شكله الحالي الرائع ، ابتناه الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان عام ٦٨٨ م ، حين حاول ان يصرف عرب سوريا وفلسطين عن الحج الى الكعبة ، يوم نصب ابن الزبير نفسه خليفة مناوئا له على مكة . وقد اقترنت الصخرة بمعراج النبي ، وفيها اثر قيل انه اثر قدم النبي ليلة اسرى وحط عليها ، رابطا حصانه البراق على مقربة منها — فيما كان « مبكى » اليهود . وهي ايضا الصخرة التي يروى ان ابراهيم الخليل اراد ان يضحي بابنه اسحق عليها ، كما انها تقع ضمن المنطقة التي اقام سليمان عليها هيكله . وتاريخها يتغلغل ولا ريب في مجاهيل التاريخ الاسطوري .

قبة الصخرة اجمل واروع مسجد في العالم ، وهي في المقدمة من مباني الحضارة الانسانية هندسة وفخامة . ومن اراد معرفة دقائقها الهندسية التي يزداد لها المرء دهشة كلما تمعن بها ، فليراجع ما كتبه عنها الاستاذ ك. كريسويل في كتابه « المعمار الاسلامي في عهده الاول ». ومع اننا ، كدأبنا في العمارات القديمة ، لا نعرف اسم مهندسها ، فان القبة ولا ريب قمة من قمم الهندسة السورية القديمة . والطريف ان المقدسي يروي ، بعد بناء المسجد بقرن من

الزمان ، ان من جملة الاسباب التي حفزت الخليفة الاموي على انفاق المبالغ الطائلة على قبة الصخرة ، ان عبد الملك ، اذ رأى سوريا تملؤها كنائس النصارى الفخمة ، وشاهد جلال كنيسة القيامة وعظمة بنائها ، خشي ان تبهر هذه المباني اعين المسلمين، فاقام هذا المبنى على الصخرة ليضاهي تلك الكنائس جلالا وعظمة .

وقد اشتركت الدول العربية في السنوات الاخيرة في عمليات ترميم شاملة ، جمعت بين الدقة والبراعة والرفاهة . فابرزت من جديد جمالها الرائع ، لا في النسب التي بين اجزائها فحسب ، بل في التفاصيل الزخرفية العجيبة في الداخل والخارج ، بما فيها من فسيفساء قد لا تضاهيها جمالا اي فسيفساء في العالم منذ العصر البيزنطي . وقد رفعت الطبقة الرصاصية الثقيلة التي كانت تعلو القبة ، واعيد بناء هذه الطبقة الخارجية من سطح القبة بزيج معدني صلب وخفيف ، ذهبي اللون ، جعلها تتلألأ وتتوهج، كما حق لها ان تتلألأ وتتوهج،وسط مباني المدينة القديمة .

وعلى مسافة من قبة الصخرة ، يقوم المسجد الاقصى متسعا للآلاف من المصلين ، وهو في بعض تفاصيله الداخلية تحفة عمرانية . والمرجح ان الوليد بن عبد الملك ، حوالي عام ٧٠٩ م ، بنى المسجد في معظم شكله الحالي مكان المسجد الاقصى الاول الذي اقيم بعد دخول العرب القدس مباشرة على غرار معماري بسيط . وقد ترك فيه المماليك بوجه خاص آثارا بديعة من فنهم، تشهد عليها زخارف باطن القبة حيث خط اسم السلطان الناصر محمد ١٣٢٨ م على مدارها الداخلي .

لحسن الحظ ، جعلت زيارة الحرم الشريف ميسورة للجميع في الآونة الاخيرة . ورصفت طريق للسيارات من باب « ستنا مريم » توصل الزائر الى طرف باحة الحرم دونما مشقة .

الحرم الشريف وكنيسة القيامة هما ، بالطبع ، المقومان الاولان لكيان المدينة. ولئن كانت قبة الصخرة ، عند بنائها ، قد جعلت مقاييسها طبق مقاييس القبة التي تعلو كنيسة القيامة ، فان قبة القيامة ، من الداخل، ما زالت زخارفها المذهبة تتهافت وتتساقط، على بساطتها . ولكثرة الطوائف المسيحية التي تصر اصرارا عنيفا على حقوقها في اجزاء مختلفة من كنيسة القيامة ، كان ترميم الكنيسة من المشكلات الشائكة التي جابهتها هذه الطوائف منذ اكثر من ثلاثين سنة . وقد اقيمت ايام الانتداب البريطاني دعائم واساقيل فولاذية لتسند البنيان المصدع ، ريثما تتفق الاطراف الكثيرة على حل ينتهي الى اجراء الترميم . فالكنيسة التاريخية ، التي اكمل بناؤها بامر من الملك قسطنطين في عام ٣٣٥ للميلاد على المكان الذي قيل ان صليب المسيح وجد فيه ، ما زالت حتى اليوم تكاد تختنق بما فيها من اساقيل جديدة ، غير انه بوشر في المدة الاخيرة بترميمها فعلا، ولعلنا نرى نتيجة الاعمال

المعمارية الجارية الآن في غضون السنوات القليلة القادمة .

تضم كنيسة القيامة الجلجلة و قبر المسيح . فهي تُرى، اروع ما ترى، في اسبوع الآلام و عيد الفصح . فيها تتوالى صلوات اللاتين والروم والارمن والسريان والاقباط، وفق نظام عريق في القدم ، بلغات الحضارات الكبرى التي مرت على فلسطين . ولست اظن ان من يشاهد صلوات « سبت النور » التي تقيمها الطوائف الشرقية في اليوم السابق لاحد الفصح، يستطيع ان ينساه طيلة حياته فيما بعد ، ولا سيما تلك اللحظة التي « ينبثق النور » فيها من كوة في مبنى قبر المسيح ، فتتلقفه بشموعها الآلاف من المصلين والحجاج المحتشدين حول القبر فيما يشبه ازدحام يوم الحشر، واذا الكنيسة كلها لبضع لحظات شعلة واحدة متأججة من النور، من قاعها حتى السقف (حيث يتراصّ الناس في الشرفات المبنية طوابق طوابق) . وفي تلك اللحظة تقرع النواقيس، وتضرب الاخشاب على الغرار القديم كالاجراس، وترتفع الاصوات بالتراتيل من الاجواق التي تكون قد تهيأت للقيام « بالدورة » حول القبر ، باليونانية والعربية والسريانية والارمنية . وتتم على هذا النحو العجيب ثلاث دورات ونيئة صداحة حول القبر قد تستغرق ساعتين او اكثر .

هناك « دورة » اخرى ، وان تقلّ عن هذه روعة بعض الشيء ، يوم احد الشعانين ، وهو الاحد الذي يسبق احد الفصح . وهو اليوم الذي كانت الاقوام القديمة في القدس تبدأ به الاحتفالات بعودة الربيع ، عودة الزهر والنضارة الى الطبيعة والانسان ، وبه ، منذ نشوء النصرانية ، يبدأ الاحتفال بموسم الحج المسيحي ، مارا باسبوع الآلام ، و « الجمعة الحزينة » (يوم الصلب) ، منتهيا بسبت النور و يوم القيامة .

لست احسب ان الاحتفال بعيد قيامة المسيح في اوائل الربيع مجرد صدفة تاريخية . فالقدس ، بل فلسطين كلها ، في مثل هذا الموسم من السنة تتفجر وديانها وتلالها بملايين الازهار البرية التي تبدو كأنها تكسو التراب والصخر على حد سواء ، اينما وقعت العين . ولعل ابرز هذه الازهار واجملها شقائق النعمان الحمراء التي ترصع الارض المحيطة بالمدينة من كل جانب — فتلتهب وتتألق كالبساط على مدى البصر . فليس عجيبا ان تكون الشقائق، منذ اقدم الازمام ، رمز الاله القتيل ، و رمز عودته الى الحياة من جديد ، فتكون بالتالي رمزا للارض المقدسة .

ليس المسيحيون ، او لم يكونوا حتى عام النكبة، الوحيدين الذين تأتي احتفالاتهم بعيد القيامة مع بواكير الربيع. فمنذ زمن بعيد كان المسلمون يحتفلون بزيارة قبر «النبي موسى» على بعد حوالي عشرة كيلو مترات غربي الطرف الشمالي من البحر الميت . وقد ارتبط هذا الاحتفال بالرزنامة الشرقية ، وجُعل لمدة ٨ ايام تبدأ قبل احد الشعانين عند الطوائف الشرقية وتنتهي يوم الجمعة الحزينة . وقد تعاظم الاحتفال ، على مر السنين ، بهذا الموسم

حتى جعله العثمانيون في اواسط القرن الماضي ، يوازن بحشوده وجماهيره حشود وجماهير الحجاج المسيحيين الذين يتقاطرون من جميع انحاء العالم على القدس ايام الفصح، واصبح بذلك من اهم وابهج اعياد السنة . فكان يبدأ بموكب اهل نابلس – يوم الخميس السابق لاحد الشعانين – الذي يصل بالآلاف من رجاله الى مكان التجمع خارج باب العمود . وعند الضحى يتحرك الموكب ، بالغناء والاهازيج والرقص ، داخلا المدينة من هذا الباب ، متوجها نحو الحرم الشريف، ومنه يخرج من باب « ستنا مريم » وينحدر نحو رأس العمود. ومن هناك يقصد الناس « النبي موسى » في السيارات ، او على الدواب، وربما راح بعضهم سيرا على الاقدام .

والموكب الثاني كان موكب اهل الخليل – وما زالت مشاهده مثيرة عالقة بذهني حتى اليوم . كان اهل الخليل يتجمعون يوم السبت عند دير مار الياس – على بعد اربعة كيلو مترات جنوبي القدس . وصباح اليوم الثاني يدخل الموكب المدينة من باب الخليل ، بالغا اياه حوالي الظهيرة –ويستمر الموكب في دخوله ثلاث او اربع ساعات كانت من اروع ساعات الحياة في المدينة . كانت الطرق تسد لكثرة الناس ، ولا يبقى مكان على الارصفة والشرفات والنوافذ و زوايا « القلعة » الا وهو يضج بمن فيه من بشر ، والموكب ملزوز مرصوص ، وآلاف الرجال يغنون ويهتفون ويرقصون . كان بلوغ الموكب باب الخليل ذروته المنشودة ، اذ يتباطأ السير هناك ، ريثما تقوم فئات الراقصين برقصاتهم ولاعبي السيوف بمبارزاتهم بسيوف كبيرة معقوفة تلتمع اطرافها فوق رؤوس الناس . وما زلت اذكر (اذا لم تخنّي الذاكرة) عبارة مما كان يرددها الهازجون بالعامية وهم يتمايلون ويترنحون ويصفقون :

الخليل عروس مزينة ومزينة برجالها

وكان الحفل حقا حفل رجال ، تتجلى فيه قوة الشكيمة والبأس. واذ يعيد المرء التأمل في ذلك الموكب المجلجل الرائع ، بازيائه ، باصواته ، بايقاعاته ، والمزمار العربي بقصبتيه يملأ المكان بموسيقاه البدائية المثيرة ، يكاد يجزم ان الحفل لا بد يعود في اصوله الى مراسيم الربيع القديمة – القديمة قدمَ القدس – منذ العهود الكنعانية الاولى.

هكذا كانت القدس تحتفل : ينزل اهل الخليل الى الحرم الشريف ومن ثم ، كموكب نابلس ، الى رأس العمود، فالنبي موسى. ويعود الجميع يوم الخميس او الجمعة التالي. ولكن اين هذه المواكب الآن ؟ لقد اتت عليها النكبة ، ولا سيما بعد ان احتل اليهود المدخل القديم الى القدس عن طريق باب الخليل، واحتلوا الطريق الاصلية المؤدية اليه من بيت لحم والخليل – طيلة الكيلو مترات الاربعة تلك – يوم ١٤ ايار (مايو) ١٩٤٨ ، على اعقاب الجيش البريطاني المنسحب .

ومنذ ذلك اليوم اصبح المجيء الى المدينة من الجنوب عن طريق يتحول عند دير مار الياس شرقا ، مخترقا الهضاب والوهاد الى بلدة صور باهر ، منحدرا على السفوح الشرقية لجبل المكبّر ، ثم صاعدا صعودا حادا نحو رأس العمود، وبالغا المدينة مداورة عن طريق الشرق – مسافة طولها ١٨ كيلو مترا ، عوضا عن الكيلو مترات الثمانية التي كانت طول الطريق الاصلية المباشرة .

طرقات ضيقة ، اسواق معقودة ينفذ اليها النور من فتحات رتيبة في السقوف المديدة، صعود ونزول يتعاقبان مع تركيب المدينة الجبلي ، ادراج اسمنتية (حل الاسمنت محل الرصف بالحجارة القديمة الزلقة)، تشعبات ومنعطفات في عتماتها حس بالزمن العتيق واتصال اليوم بالسنين الغوابر . البيوت يكاد بعضها يقرفص على بعض ، واحياء السكنى تخالط اسواق الخضار والعطارين والحدادين والحلويين .

ولكن ما من امة في العالم الا وتريد ان يكون لها رقعة مهما صغرت في هذه المدينة . قد تكون الرقعة احدى التكايا الملحقة بالحرم ، او قد تكون ديرا او كنيسة تتفاوت مساحة وضخامة . وفي كل مسجد ، وفي كل دير ، وراء الجدران السامقة ، عالم خاص ، له اجواؤه ، ولغاته ، وازياؤه ، وموسيقاه . فالقدس، مهما جارت عليها الازمان، مدينة اعياد متلاحقة ، وشعائر دينية وضعت في خدمتها عبقرية الانسان . انها على صلة بالعالم دائمة ، وهي في الوقت نفسه تتأمل ذاتها وتعيش مأساتها كل يوم . وهذا بعض السبب في ان التاريخ هنا حي في كل زاوية ، ينطق به كل حجر . والحجر – ابو الحضارات – بارز الكيان في هندسة المباني والاسواق ، بكل اشكاله واحجامه ، يلاصق فيه ما يعود الى الف سنة خلت ذاك الذي اقيم اليوم او البارحة .

قد ترى فجأة، في باب خان الزيت، بضع مئات من النساء والرجال يصلّون باللاتينية ويحثون على ركبهم بين ارجل السابلة، بين اكياس البقالين وصناديقهم، بين الحمّارين والباعة المتجولين والمقرىء عبد الباسط عبد الصمد يرفع صوته الجميل بآيات من القرآن من مذياع قريب . لقد ذاب التناقض ، وزالت الدهشة . و « طريق الآلام » يتردد فيه ذكرى حمل الصليب في سبيل الانسان كل ساعة، كل يوم، والناس ساعون في سبيلهم الى شؤون الحياة. فالقدس ليست مجرد مكان فحسب . انها الزمان ايضا . انها تجسيد قائم لتجربة الانسان الهائلة تاريخ حضارته ، منذ ان بدأ التاريخ يتضح على يديه ، بانجازاته وفواجعه .